محمد كرد علي
من علماء العرب الخالدين

الدكتور ناجي معروف

الرئيس محمد كرد علي : شخصية فذة ، عديدة النواحي ، متشعبة الجوانب ، حافلة بجلائل الأعمال ، ومن أهم أعماله ومزاياه في نظري بعد إنشاء المجمع العلمي العربي بدمشق إيمانه بالعلم أساساً لكل عمل باعتبار ما يبنى على العلم يبقى ويخلد ، وما لا يبنى على العلم يزول وينهار ، وأمران آخران جديران بالبحث والدراسة :

أولها : أنه كان مؤمناً بالعربية وأهلها .

وثانيها : أنه كان يقف بالمرصاد للشعوبيين ، يرد طعونهم على العرب والإسلام ، ويفنّد حججهم بحجج وبراهين لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ومن الحق أن أقول : إنني نشأت على حب محمد كرد علي في كتاباته وبحوثه وكتبه منذ عهد النشأة ، وأشربت مبادئه وآراءه العربية والإسلامية ، وردوده على الشعوبيين والمستشرقين المتعصبين على العرب والإسلام ، تلك الردود التي اتسمت بالبحث العلمي والرصانة في التفكير ، والتحري عن الحقائق ، والصفة بالنزاهة والإنصاف وعدم التحيز وبخاصة في كتابيه :الإدارة في عز العرب ، والإسلام والحضارة العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هنا كان للمرحوم محمد كرد علي أثر كبير في نزعتي القومية ، وتوجيهي وجهـــة عربية إسلامية ، وكان لي مدرسة عالية تعلمت فيها الاعتزاز بالعرب والعربية ، والحضارة العربية ، والثقافة الإسلامية ، حتى أصبح رائدي البحث عن كل جديد في هذه الحضارة العربية العتيدة من حيث أصالتها ، ومن حيث عروبة المدن التي أنشئت عبر العصور ، ومن حيث عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق والمغرب ، وقد أثبتُ في كتابيّ الأخيرين وفي الكتب التي تنشرها لي وزارة الإعلام العراقية أن ألوف العلماء المسلمين الذين يضافون إلى البلدان الأعجمية إنما هم من العرب الخُلّص .

وإذا كنت قد تطرقت في هـــذه الكلمة إلى ذكر العلماء العرب المنسوبين إلى المواطن الأعجمية فلأني وجدت وأنا أصلح الصفحات الأخيرة من « تجارب » كتابي الخاص بعروبة العلماء المنسوبين إلى الأرباع الأربعة في خراسان : نيسابور ومرو وهراة وبلخ . أن المرحوم محمد كرد علي أشار قبلي بزمن طويل إلى عروبة اثني عشر عالماً من أعلام العرب المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في كتابه أمراء البيان ، وبحث في عروبة الصاحب ابن عباد .

قال ، رحمه الله ، في عروبة الصاحب بن عبـــاد [1] وكأنه يتكلم عن نفسه :

أجمع من ترجموا لابن العميد أنه فارسي من أهل « قمّ » ، ولا يفهم

(١) أمراء البيان ج ٢ ص ٥٥٠ – ٥٥١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من كونه فارسياً أنه من صميم الفرس ، فقد يسكن العربي قمّ وقزوين وشيراز ونيسابور والري وهو عربي بأصوله ، فينسب إلى البلد الذي نزله أو ولد فيه ، وما هو فارسي بالمعنى الذي نفهم به اليوم معنى هذه النسبة ، ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عرباً أقحاحاً ، نشأوا في تلك الأرض فنسبوا إليها . وقد حدثنا التاريخ بأن مئات من علماء المسلمين وأبناء الأنصار والمهاجرين هاجروا إلى البلاد التي فتحت على أيدي العرب في الشرق والغرب فنسبوا إلى أوطانهم لا إلى آبائهم كما كانوا من قبل ، فضاعت بذلك أصولهم .

وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وتأصل فيه بالدرس ، وكم من غريب عن هذا اللسان خَدَمَهُ خدمةَ أبنائه الأصليين . وقد قال أبو الريحان البيروني ، وهو من خوارزم ومن أعظم علماء الإسلام : « الهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علمٍ نُقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به ، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

وقال ، رحمه الله تعالى ، في الهامش المرقم (١) من الصفحة ٥٥٠ من كتابه « أمراء البيان » :

« تُعلَم أصول من اشتهروا في فارس من العلماء بإلقاء نظرة على كتب الأنساب ، والوفيات ، وتراجم المحدّثين وغيرهم .

فقد نسبوا صاحب الأغاني إلى أصفهان ، وهو أموي عربي [١]

---

(١) وفاته سنة ٣٥٦ هـ ، كتابنا عروبة العلماء ... في المشرق الإسلامي ج ١ ص ٣٧٨ – ٣٧٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونسبوا صاحب القاموس إلى فيروزاباد ، وهو بكري عربي (١) .

ونسبوا القزويني ؛ صاحب آثار البلاد ، إلى قزوين ، وهو عربي من سلالة مالك بن أنس (٢) .

ونسبوا ابن حبّان البُسْتي ، صاحب التآليف العظيمة ومن طبقة البخاري إلى بُسْت ، وهو تميمي (٣) .

ونسبوا أبا حيّان التوحيدي إلى شيراز ، وهو من صميم العرب (٤) .

وكان أبو داود السِّجِستاني ، صاحب السنن ، من الأزد (٥) .

وأبو العباس النَّسَوي ، مصنف المسند ، من بني شيبان (٦) .

وأبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ، صاحب المسند ، من بني قُشَيْر (٧)

---

(١) وفاته سنة ٨١٧ هـ . وهو مجد الدين أبو طاهر بن يعقوب شيخ الإسلام . كتابنا عروبة العلماء في فارس والأهواز . تحت الطبع .

(٢) وفاته سنة ٦٨٢ هـ . كان مدرساً بالمدرسة الشرابية بواسط . كتابنا عروبة العلماء في إقليم الجبال . تحت الطبع .

(٣) وفاته سنة ٣٥٤ هـ . كتابنا عروبة العلماء .. في الشرق الاسلامي ج ١ ص ٣٧٥ — ٣٧٧

(٤) علي بن محمد ولد بشيراز (أو نيسابور) وتوفي سنة ٤١٤ هـ في رواية . كتابنا عروبة العلماء في فارس والأهواز . تحت الطبع .

(٥) وفاته سنة ٢٧٥ هـ . كتابنا عروبة العلماء في المشرق الإسلامي ج١ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٦) وفاته سنة ٣٠٣ هـ . وهو النسائي أيضاً . كتابنا عروبة العلماء ... في خراسان ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٧) وفاته ٢٦١ هـ . كتابنا عروبة العلماء ... في خراسان ج ١ ص ١٥٦-١٥٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والهَرَوي المفسر من ولد أبي أيوب الأنصاري [١] .

وأبو الوليد النيسابوري ، فقيه خراسان ، أموي من ذرية سعيد بن العاص الأكبر [٢] .

والفخر الرازي المفسر عربي [٣] .

وقال ابن قتيبة : إن خارجة بن مصعب هو من بني شجنة من ضُبَيْعة ، وكان أفقه أهل خراسان وأرضاهم عندهم، وعقبه بخراسان ، وكان أبوه مصعب بن خارجة مع علي بن أبي طالب » [٤] .

ومع أني حاولت أن أبحث في المشرق الإسلامي عن العلماء المسلمين الذين ينحدرون من أصلاب عربية فإني وجدت المرحوم محمد كرد علي يؤكد هذا الأمر ، ويحاول أن يؤكد أيضاً أن العربي هو من يحذق العربية ، ولو كان من أصول غير عربية . وفي هذا دلالة كافية على سعة أفقه ، ومبلغ تفكيره ، وتحرّيه عن علماء العرب واعتزازه بهم وإعجابه بلغة العرب . وإنك لتجد في محاضراته التي ألقاها في كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٣ م ، أي منذ أكثر من أربعين سنة ، تعابير مختلفة تنمّ كلها

---

(١) هو أبو ذر الهروي الأنصاري المتوفى سنة ٨٣٤ هـ . كتابنا عروبة العلماء ... في المشرق الإسلامي ج ١ ص ٤٨٩ — ٤٩٠

(٢) هو حسان بن محمد الأموي المتوفى سنة ٣٤٩ هـ . كتابنا عروبة العلماء ... في خراسان ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١

(٣) وفاته سنة ٦٠٦ هـ . وهو عربي من سلالة أبي بكر الصديق . كتابنا عروبة العلماء في إقليم الجبال . تحت الطبع .

(٤) وفاته سنة ١٦٨ هـ . كتابنا عروبة العلماء ... في خراسان ج ١ ص ١٢١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن حبه للعرب وإعجابه بهم، وبحضارتهم وثقافتهم بلْه الدين الإسلامي الذي بشروا به في العالم .

وإليك فيما يأتي مقتطفات من أقواله وآرائه التي دوّنها في الكتابين المذكورين عن العرب والعروبة والحضارة العربية ، مفتخراً أو مدافعاً ، أو مناقشاً للشعوبيين والمستشرقين مفنّداً لآرائهم بحجج ووثائق من تاريخ العرب أنفسهم ، أو بأقوال من آراء المستشرقين المنصفين الذين أنصفوا العرب والإسلام .

قال طيّب الله ثراه وعطر ذكراه :

كان الصحابة [1] « عظاماً في كل مظاهرهم حتى أدهشوا الأمم بجميل صنعهم ، وأنشأوا في نحو مئة سنة مملكة عظيمة لم يسبق لأمة قبلهم أن دانتهم في مثل ما تمّ على أيديهم » [2]

وقال : « إن ما نقله العرب عن غيرهم من تراتيب الممالك معروف ومعترف به ، والإنصاف يقضي أن يُسجل لهم قسطهم من الأعمال المنبعثة مباشرة من قرائحهم المزينة بأخلاق عالية ، ما عهد ، فيما نظن ، مثلها كثيراً في الأمم السالفة ولا الخالفة » [2] .

وقال : يقول دريول Driault « .. كان الفتح العربي في طرفي البحر المتوسط أعظم وأخصب من الفتح الروماني ، وقد دامت ممالكه قروناً ، وكانت مصانعه أعظم أثراً من مصانع رومية ، وما هي إلا عنوان

(١) كان عددهم (١١٤) مئة وأربعة عشر ألفاً .

(٢) الإدارة في عز العرب ص ٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثقافة عالية جداً . وقد كان لهم الأثر المشهور في إسبانية إلى آخر القرن الخامس عشر » (١)

ويقول بارتلمي سان هيلير . « تَدَمَّثَتْ نفوس قساة الطباع من سادة القرون الوسطى بملابستهم العرب وتمازجهم بهم وعرف الفرسان بدون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم شعوراً أرق وأشرف وأعرق في الإنسانية من شعورهم » (٢) .

ويقول لوبون : « .. كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وتمّ لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل العناصر المختلفة التي دانت بالإسلام . وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الامبراطورية الرومانية . وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوربا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله . وعلى ذلك كان العرب أساتذتنا مدة ستمئة سنة » (٣).

ويقول لوبون أيضاً : حاول « رنان » أن يثبت عجز العرب ، في محاضرة ألقاها في جامعة السوربون عن الإسلام ، فنقض بيده كل مزاعمه ، فقد ذكر مثلاً أن ارتقاء العلم كان بفضل العرب خلال ستمئة سنة (٤) .

ونقل رحمه الله عن لوبون قوله : .. لأصحابنا كولد زيهر المجري ومركليوث الانكليزي ولامنس البلجيكي أقوال بعيدة عن محجة الصواب في الإسلام (وهناك) طبقة راقية تأخذ بمذاهب العلم والأدب وتفاخر

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٠

(٢) ن . م الجزء الأول ص ٨

(٣) ن . م الجزء الأول ص ٩

(٤) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى اليوم بمجد العرب وتاريخهم ، وتحرص على إحياء مدنيتهم ، ودراستها ، حرصها على إحياء كل علم نافع (١) .

وأنحى المرحوم محمد كرد علي باللائمة على أولئك الذين أصدروا أحكاماً جائرة على العرب ومدنيتهم فقال : « ومنهم من أعمى التعصب المذهبي بصره وبصيرته فكال الباطل كيلًا ، وخلط وخبط تحت أستار العلم والبحث » (٢) .

وقال أيضاً : « إن من أعظم العابثين بتاريخ المسلمين المنكرين أثر العرب في الحضارة جماعة ... قد جعلوا همهم الأكبر .... تشويه بعض الحقائق الثابتـــة .... ومنهم ، بل من المقدمين فيهم ، مؤلف اسمه « لامنس » عاهد تاريخ الإسلام على مناقضته ، وتمحص للحطّ من قدر العرب منذ عرفوا بين الأمم (٣) .

ويذكر المرحوم محمد كرد علي الشعوبيين الذين ألفوا الرسائل والكتب ، وصنفوا المسامرات والخطب ، وراجت عندهم أسواق المهادح والمقابح ، وناهضوا العرب في القديم والحديث وفي الشرق والغرب ، وقاموا ينقصون من حضارتهم وتاريخهم ، لأغراض في نفوسهم لا تخفى على أرباب البصائر . ويقول : لهؤلاء الشعوبيين طرق غريبة في الحط من العرب ، يتناولون فيها كل مسألة تؤدي مباشرة أو غير مباشرة إلى العبث بمزايا تناصرت الأخبار على تفرد العرب بها (٤) .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٤ .
(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٤
(٣) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠
(٤) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٥ — ٣٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقارن محمد كرد علي بين المستشرقين المنصفين وغير المنصفين منهم فيقول : إن « لامنس » الشعوبي البلجيكي يسقط من شأن مؤرخي العرب كما يسقط من شأن علماء الافرنج ، وبراون الانكليزي يقول : إن كتب العرب في التاريخ أوسع الكتب وأدقها ، ويرى أن التاريخ في بعض المؤلفات العربية لم يكتب على نسقه في أوربا . ويذكر بالإعجاب ابن خلدون وابن الأثير ، والطبري ، والفخري وغيرهم . قال : وفي باب العلم والفلسفة والأخلاق نجد من المؤلفات مالا يوجد له مثيل [١] .

ويقول محمد كرد علي : شق على بعض الشعوبية أن تُنسب مزيّة للعرب فسلبوهم كل فضائلهم المحسوسة الثابتة في الإسلام والجاهلية . وشق على آخرين ، وهم معترفون ضمناً بفضل العرب ، أن يقوم العرب بقسطهم من خدمة الحضارة . وينقل من كتاب « أخلاق المسلمين وعاداتهم » لگوتييه Gautier قوله :

لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية من فضيلة المسامحة لم تكن تتوقع من أناس يحملون ديناً جديداً ... وما فكر العربي قط في أشد أدوار تحمّسه لدينه الجديد أن يطفىء بالدماء ديناً منافساً لدينه [٢] .

وردّ على كارادفو [٣] (Carra de Vau)فقال : أخطأ في قوله : إن معظم مدنية المسلمين قامت بعناصر غير عربية . وقال أيضاً : فاته أن من دخلوا في الإســـلام من الفرس والقبط والسريان

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٨

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٤٢

(٣) اسم كتابه « المفكرون في الإسلام » Les Penseures dc L,islame

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والروم وغيرهم درسوا في مدرسة العرب وأخذوا لغتهم وثقافتهم ودينهم وعاداتهم . وإذا كان ابن سينا والغزالي والبيروني والرازي مثلاً أعاجم بأصولهم فهم عرب بتربيتهم وثقافتهم .. (١)

وحاول المرحوم محمد كرد علي أن يقتبس نبذاً من أقوال العلماء الغربيين في العرب فدوّن ما وافق رأيه في العروبة والعربية والإسلام ، فنقل عن كوستاف لوبون الفرنسي قوله :

« كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التي حملت علم التمدن حقيقة ، وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية وأعني بها : الدين ، والمصانع ، والصناعة ، بين ظهري عناصر جديدة من غير عنصرهم » . ثم قال وتساءل لوبون أيضاً بقوله : « هل من الواجب أن نذكر أن العرب ، والعرب وحدهم ، هم الذين هدونا إلى العالم اليوناني واللاتيني ، وأن الجامعات الأوربية ، ومنها جامعة باريس ، عاشت مدة ستمئة سنة من مترجمات كتبهم ، وجرت على أساليبهم في البحث . وكانت المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ ... وإن العرب هم الذين مدّنوا أوربا في المادة والعقل والخُلق ... ومتى درس المرء ما عمل العرب ، وما كشفوه من العلم يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوا ..... ولئن كان تأثير العرب في الغرب عظيماً فإن تأثيرهم في الشرق أعظم . وما من عنصر أثّر تأثيره قط ..... وإن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » (٢)

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٥٢

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٥٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذكر عن أحد علماء ايطاليا - رينالدي - قوله : « لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربي العظيم الذي ترك في طريق المدنية آثاراً عديدة ، والذي حمل معه أعظم المعاونات ، وأجلّ الخدم للنوع الإنساني ؟ » (١)

وقال بريس دافن الفرنسي في كتابه « الفن العربي » : « إنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي ، وذلك أولاً لكثرة فحول الرجال الذين أخرجهم هـذا الشعب العظيم ، وثانياً لما أحدثته في العالم فنونه وعلومه من التقدم العجيب مدة قرون عديدة » (١) . ونقل عن كستلو قوله في كتابه قانون التاريخ : « كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول عظيماً ، جرى على أسرع ما يكون ..... فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة ..... وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية فأصبحوا سادة الفكر ... » (٢) .

ونقل عن لوثروب ستودارد الأمريكي مؤلف حاضر العالم الإسلامي قوله : « ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة ، عظيمة الأخلاق والسجايا ، توّاقة إلى ارتشاف العلوم .... » (٣) .

ونقل عن كتاب إيقاظ الغرب للإسلام « لهيدلي » قول « ليونارد » : ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٥٥
(٢) « « « « « « ٥٦
(٣) « « « « « « ٥٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والعلم فأحيت المجتمع الأوربي ، وحفظته من الانحطاط ، ولم نعترف — ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية — بأنه التهذيب الإسلامي ، ولولا مدنية العرب ، وعلمهم ، وعظمتهم في مسائل المدنية ، وحسن نظام مدارسهم لكانت أوربا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل ، وكيف ننسى الخسارة الفادحة التي جنيناها على آداب العرب ؟ بل الجناية التي جنيناها على العالم أجمع بتدميرنا عن جهل وغرور ألوفاً من كتبهم ... » [١] .

ونقل عن گوتييه قوله : « إن محصول المدنية العربية في العلم على اختلاف أنواعه يفوق محصول المدنية اليونانية كثيراً ، ذلك لأن العلم العربي كان له أصول قديمة » [١] .

وبعد : فهذا يسير جداً مما دوّنه (الأستاذ المرحوم) محمد كرد علي في دفاعه عن العرب ، والعربية ، والذبّ عن حضارتهم ، إما نقلاً عن كبار علماء الغرب المنصفين ، ومناقشة الشعوبيين منهم ، أو مما توصل إليه نتيجة دراسته الدائبة للدين الإسلامي والحضارة العربية ومزايا العرب والعربية . وقد رد بكل ذلك على منازع الناقمين على العرب والعروبة والإسلام . وإنك لترى أنه رحمه الله تعالى كان يتسقط الأخبار من أفواه العلماء ، ويلتقط كل ما هو حسن عن العرب ، ويدوّن كل صفة حسنة وصف بها العرب ، وينفي عنهم كل معيب وقبيح .

وإنني لسعيد جداً أن تتاح لنا هذه الفرصة لنكرر هذا الدرس البليغ الذي درسناه على هذا الأستاذ الكبير قبل أكثر من أربعين سنة ، وأن نحيي الذكرى المئوية لولادته ، وأن نكثر من الترحم عليه . فقد دافع عن الإسلام وعن العرب وعن لغة العرب ، وذب عن حضارة العرب ، وكان حقاً من علماء العرب الخالدين .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٧٢ — ٧٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net